آفاق الحضارة الإسلامية، أكاديمية العلوم الإنسانية و الدراسات الثقافية
السنة السادسة عشرة، العدد الأول، الربيع و الصيف ١٤٣٤ هـ.ق، صص ٩٩ – ١١١

دراسة رثاء الحسين (ع) فی أشعار الإمام السجاد (ع)

معصومه نعمتی قزوینی*

پدرام علیمرادی**

الملخص

إنّ من يدرس رثاء الإمام الحسين (ع) فی الشعر، يجد فيه مضامين تنبیءعن وقائع عظيمة وخطوب فادحة محرقة تبيّن مدى تأثّر الشعراء بحادثة الطف وما جری للإمام الحسين (ع). فجاءت هذه المضامين فيها مملوءة بالصور تحكی عن هذه الوقائع وما عاناه الإمام (ع) وأصحابه. فقمنا فی هذه المقالة بدراسة الرثاء الحسينی خلال أشعار الإمام السجاد (ع) على أساس المنهج الوصفی ـ التحليلی فنجد فيها مضامين أهمّها ذمّ الناس وإثارة روح الندامة بينهم لتحريضهم على القيام، كما تجلّی فيها بعض خصائص العصر كجور الحكام الأمويين ومظلومية آل بيت الرسول (ص) وأيضاً ميل الناس إلى الدنيا وحبّها وتحذيرهم من الغفلة التی أصيبوا بها.

الكلمات الرئيسة: الشعر العربی، الأدب الملتزم، الرثاء، الإمام الحسين (ع)، الإمام السجاد (ع).

١. المقدمة

الرثاء مدح الميت وبكاؤه والذی يرمی الى تحقيقه إفراغ النفس من الحزن واستلهام العبرة من تغلب الموت على الحياة، لإحساس الراثی على نحو من الأنحاء بأن موت المرثیّ الواقع إنذار بموت متوقّع (طليمات، ٢٠٠٧: ٥٩٢).

* أستاذة مساعدة، بأكاديمية العلوم الإنسانية و الدراسات الثقافية طهران (المسؤول عن المقالة) m.n136089@yahoo.com
** ماجستير فی فرع اللغة العربية وآدابها، بأكاديمية العلوم الإنسانية و الدراسات الثقافية طهران
alimoradipedram@gmail.com

تاريخ الوصول: ١٣٩٢/١/٢٤، تاريخ القبول: ١٣٩٢/٣/٥

أما العرب فی العصر الجاهلی فقد کانوا یتجلّدون و ینتفضون من فتور الحزن ویعدّدون مناقب المیّت. فإن کان الفقید قد مات حتف أنفه صبروا علی ما أصابهم وإن کان قتیلاً هدّدوا القاتل بأخذ الثأر. فلمّا بزغ الإسلام خلع علی الموت فلسفة أخری. فمن مات حتف أنفه فموته انتقال من الفانیة إلی الباقیة و یوم القیامة یُبعث ویُحاسب ومن قُتل فی ساحة الجهاد فهو شهید، والشهید حیّ یُرزق عند ربّه (المصدر نفسه: ٥٩٣).

ومن أقدم ضروب الرثاء هو رثاء الأقارب وربما کان من أعمقه إحساساً وأصدقه تعبیراً لأنّ الحزن الذی هو باعثه، یتفجّر علی نحو عفوی أولاً ویخلو من المجاملة المتکلفة والانفعال بالعدوی أو التظاهر به ثانیاً (المصدر نفسه: ٦٠٧).

لأنّ الرثاء کان من أقدم المضامین فی الشعر والأدب، نجد کتباً کثیرة ومقالات عدیدة دوّنت فی هذا المجال. ولرثاء الإمام الحسین (ع) خاصةً أثر عمیق فی النفوس وفی أدب المجتمعات لاسیّما المجتمعات الإسلامیة؛ ولقد أثارت هذه الفاجعة، الأشجان والأسی حیث أدّت إلی ازدهار الرثاء فی ذلک العصر والعصورالتی تلته واستمرّ إلی یومنا هذا. وللإمام السجاد (ع) ولعقیلة بنی هاشم زینب الکبری (س) من بین أسرة الإمام الحسین (ع) دور هام فی تسجیل الحادثة وإثارة الثورات المتتابعة بعدها.

فکانت واقعة شهادة الإمام الحسین (ع) وأصحابه وإسارة أسرته من بین الفجائع التاریخیة أشدّ أثراً فی النفوس المستعدّة کما روی الإمام الصادق (ع) من النبی الأکرم (ص): «إنّ لقتل الحسین (ع) حرارة فی قلوب المؤمنین لا تَبرد أبداً» (نوری، ١٤٠٧: ١٠/ ٣١٨). و من الطبیعیّ أنّ هذا التأثیر أشدّ وضوحاً فی کلام الإمام السجاد(ع) ـ الذی شاهد هذه الحادثة بأمّ عینه. فرثی الإمام (ع) أبیه فی أشعار مفعمة بالحزن والأسی.

فالإمام السجاد (ع) ما کان شاعراً إلا أنّه استخدم الشعر وسیلة لخدمة أهدافه الإلهیة فلم یتّخذ الشعر غایة وهدفاً بل تعامل معه بنهجین أحدهما یکمّل الآخر:

الأول: قام بتهذیب الشعرعبر الارتقاء بالشاعر وتهذیب أفکاره وسلوکه بالمضامین الحکمیة فی أشعاره کما یقول و یحذّر المخاطب من الاتّکال علی الدنیا الفانیة:

ألا إنَّ الرّکونَ علی غُرور إلی دار الفَناءِ مِنَ العَناءِ

(الخیابانی، ١٣٥٧: ٣٠)

الثانی: جعل الشعر فی خدمة القضایا التی تصب فی بعض الفتور من حیاته، فالشعر عنده أداة من أدوات التبلیغ والتذکیر وکان القاسم المشترک بین کلامه وما یستشهد به من الشعر هو تحریک العقول وعواطف الناس وإیقاظ ضمائرهم وإثارة صحوة الروح فیهم.

ورثاء الإمام الحسین (ع) من أحسن المضامین لهذه الأهداف؛ فاستخدمه الإمام السجاد (ع) کثیراً بلسان النثر والشعر. هناک بعض الکتب التی قد جمعت فیها الأشعار المنسوبة إلی الائمة (ع) کـ «التحفة المهدویة» للشیخ محمد علی التبریزی الخیابانی و «دیوان أهل البیت» لعلی حیدر المؤید و هذان المؤلفان قد جمعا هذه الأشعار من مصادر قدیمة شتّی کـ «الاحتجاج» للطبرسی أو «المناقب» لابن شهر آشوب.

وجدیر بالذکر أن أکثر هذه المصادر قام بشرح الأبیات علی الاختصار ولم تدرسها دراسة بلاغیة أو لغویة. والدکتور حسن عبداللهی فی کتابه المسمّی بـ«الترجمة والشرح للأشعار المنسوبة إلی فاطمة الزهراء (س) والأئمة المعصومین علیهم السلام» قد ترجم قسماً من هذه الأبیات فقط.

وللإمام السجاد (ع) دیوان حقّقه ماجد بن أحمد العطیة. إذ جمع المؤلف فی هذا الکتاب ۳۸۷ بیتاً من الأبیات المنسوبة إلی الإمام السجاد (ع). ولا یخفی أن بعض هذه الأبیات غیر مقطوعة الصدور عن المعصوم بل هناک خلاف علمی فی أنّ الائمة کانوا ینشدون الشعر أم کانوا یستشهدون به و هذه مسألة لسنا بصدد تفصیلها فی هذا المجال.

فرغم دراسة واقعة الطفّ وما بعدها فی عدة کتب أو رسالات لا نجد دراسة خاصة حول الرثاء الحسینی فی أشعار الإمام السجاد (ع) لأن اکثر الباحثین قد طالعوا نثر الإمام (ع) من الأدعیة و الخطابة. ففی هذه المقالة قمنا بقراءة جمیع الأبیات المنسوبة إلی الإمام (ع) ومن ثمّ دراسة الأبیات ذات الصلة بموضوع بحثنا هذا. ففیما یلی نقوم بدراسة بعض الجوانب للرثاء الحسینی فی هذه الأشعار.

۲. جوانب الرثاء الحسینی فی أشعار الإمام السجاد (ع)

۱.۲ إثارة روح الندامة بین الناس و تحریضهم علی القیام

لأشعار الإمام السجاد (ع) وخُطبه أثر فی تحریض الناس علی طلب الثأر، فصوّر الإمام (ع) روح الندم فی الناس بعد أن ترکوا نصرة الإمام الحسین (ع)، خاصة بعد أن کانت الکوفة بعد واقعة کربلاء تتحسّس أکثر من غیرها ثقل الذنب ومرارة الندم، باعتبارها طرفاً مباشراً ومسؤولاً فی قضیة الإمام الحسین (ع)، فهی التی ألحّت علیه بالخروج إلی أرض الثورة التی تتعطّش إلی قائدها المنتظر، ثمّ تقاعست فی أحرج الظروف عن الالتزام بما وعدت به والوفاء بالعهد الذی قطعته علی نفسها. فأخذ أنصار الثورة الحسینیة، یجتمعون بعد مقتل الإمام الحسین (ع) مباشرة فی إطار من السرّیة التامّة، وعند الاجتماع یعقدون مناقشات أشبه ما تکون بالنقد الذاتی، وذلک

لمحاسبة أنفسهم على التقصير الذی أظهروه إزاء الحسين (ع)، والتشاور على كيفية التكفير عن الذنب وغسل العار الذی لحق بهم نتيجة هذا التخاذل، فبدأت ثورة التوابين بعد شهادة الإمام الحسين (ع) فی الكوفة.

وفيما يلی نذكر بعض المراثی التی نظمها الإمام السجاد (ع) فی رثاء الإمام الحسين (ع) بما يصوّر فيها بعض المصائب ويبعث روح الندم بين الناس:

سادَ العُلوجُ فما تَرضَی بِذا العربُ وصارَ يقدمُ رأسَ الامّة الذَنَبُ
يا لَلرّجالِ وما يأتی الزمانُ به مِن العجيب الذی ما مِثلُه عَجبُ
آلُ الرّسولِ علی الأقتابِ عاريةٌ وآلُ مروانَ تَسری تحتَهم نُجُبُ

(أحمد العطية، ١٤٢٣: ٢٦)

أشار الإمام (ع) فی البيت الأول بعدم رضا العرب بحكومة الأمويين وهذا يعنی أنّهم غصبوا الحكم وضاعوا حق آل الرسول (ص)، فاستعمال لفظ «العرب» يدلّ على غرض الإمام فی بعث روح الحمية والغيرة بين الناس ومن ثمّ تحريضهم على القيام وطلب الثأر باستعمال أسلوب الاستغاثة، كما يصف كيفية إسارة أهل بيت النبوة كی ينبّه الناس الغافلين، فالرثاء حزين تخالطه روح الهجاء وصدق العاطفة.

ثم انشد:

ليتَ شِعری هل عاقلٌ فی الدَّياجی باتَ مِن فَجعة الزمانِ يُناجی
أنا نَجلُ الامام ما بالُ حقّی ضائعٌ بينَ عُصبةِ الأعلاج

(المصدر نفسه: ٣٠)

يرسم الإمام (ع) فی مرثيته غربته بما تجلّت فيها روح التحريض على طلب حقّ الامام(ع) بذكر نسبه لأنّه كان من وُلد الإمام (ع) وسبط الرسول (ص)، ففی هذه القصيدة والقصيدة الماضية يهجو الإمام (ع) بنی أميّة ويسمّيهم بالعلوج والأعلاج لبيان كفرهم وهجاءهم لأنّ العِلج بمعنی الكافر مطلقاً أو الكافر العجمیّ.

٢.٢ ذمّ الناس و عتابهم

إنّ مراثی الإمام السجاد (ع) وأُسارى حادثة الطفّ مليئةٌ بذمّ المسلمين خاصة أهل الكوفة و تقبيحهم كما أنشدت زينب الكبرى (س) أبياتاً لتوبّخهم على تخاذلهم ونكثهم وتحذّرهم من أن يسأل رسول الله (ص) عنهم يوم القيامة خاصة بعد أن أوصاهم بمودتهم وحبهم!

ماذا تقولون إذ قال النّبیُّ لَکم ماذا فَعلتُمُ وأنتم آخِرُ الأممِ
بعترتی وبأهلی بَعدَ مُفتَقَدی منهم أُسارَی وقَتلَی ضُرّجوا بدمی
إن کانَ هذا جزائی إذ نَصَحتُ لکم أن تَخلُفونی بسُوءٍ فی ذوی رَحمی[1]

(ابن شهر آشوب، ۱٤۳۲: ٤/ ۱۱٥)

فالرثاء الحزین المفعم بالهجاء، مشهود فی هذه الأبیات مع قوّة البیان والإحکام فی العبارة لأنها تصوّر مصائب أهل البیت بعد فقدان الرسول الأکرم (ص) وخاصة بعد أن أوصی الناس بحبّهم کأجر لرسالته.[2]

کما أنشد الإمام السجاد (ع):

لا غَروَ ان قُتل الحسینُ و شَیخُه قد کانَ خیراً مِن حسین وأکرَما
فلا تَفرَحوا یا أهلَ کوفةَ بالّذی أُصیبَ حسینٌ کان ذلک أعظَما
قَتیلٌ بشَطّ النّهرِ نَفسی فِداؤهُ جزاءُ الذی أرداهُ نارُ جهنّما

(المصدر نفسه: ۱۱٥)

فأنشد الإمام (ع) هذه القصیدة لمّا خرج من الفسطاط[3] ودخل الکوفة و وبّخ أهله علی عذرهم ونکثهم لأنهم قتلوا الحسین (ع) کما قتلوا أباه الذی کان خیراً منه. فعبارة (لا تفرحوا) تشیر إلی شدة جهل الناس لأنّهم قتلوا سبط نبیهم ثمّ فرحوا بفعلهم. کما أشار الإمام (ع) إلی فخامة شأن أبیه بقوله (نفسی فداؤه) من جهة وعظمة ذنب الناس فی قتله من جهة أخری. و أیضاً نجد هذه المضامین فی خطبته التی أنشأها قبل هذه الأبیات:

> هیهات أیّها الغَدرة المَکرة حیل بینکم وبین شهوات أنفسِکم. أتریدون أن تأتوا إلیّ کما أتیتم إلی آبائی من قبل؟! کلاّ ورَبّ الراقصات إلی مِنًی فإنّ الجرح لمّا یندمل! قُتل أبی بالأمس واهل بیته معه فلم یَنسَنی ثُکلُ رسول الله وثکل أبی وبنی أبی وجدّی، شَقَّ لَها زمی ومرارتُه بین حناجری وحلقی وغُصصه تجری فی فراش صدری و مسألتی ألا تکونوا لنا ولا علینا (الطبرسی، ۱٤۲۲: ۲/ ۳۰٦).

فیتّهم الإمام السجاد (ع) أهل الکوفة بالغدر ونکث الأیمان کما کانوا فی زمن أمی رالمومنین(ع) فقتلوه فی محراب عبادته وهو أشرف الائمة و الأوصیاء. و کلمة شطّ النهر فی البیت الأخیر رمزٌ لعطش الإمام الحسین (ع) فی یوم عاشوراء ومنعه من الماء، ثم یوعّدهم الإمام (ع) بعذاب الجحیم و یذکرهم بقصر الأفراح.

و أنشد الإمام (ع) فی هذا النوع من الرثاء الممزوج بالهجاء:

يا اُمّـة السَّـوءِ لا سـقياً لِـرَبعكمُ　　يـا اُمّـةً لَـم تُـراع جـدَّنا فينـا
لـو أنّنـا و رسـولَ الله يَجمعُنـا　　يـومَ القيامـةِ مـا كنـتم تَقولونـا
تسـيّرونا علـى الأقتـاب عاريـةً　　كأنّنـا لـم نُشـيّد فـيكمُ دينـا

يحتجّ الإمام السجاد (ع) أمة المسلمين ويشـير إلـى محاسـبتهم يـوم القيامـة وسـؤالهم رسولُالله (ص) عن قتل ولده وهتک حريمه. كما يلعن هؤلاء الكفَرة فـى البيـت الأول لأنـه يعتقد أن هذه الأمة تستحقّ جميـع المصـائب والبلايـا فيـدعو علـيهم بالجـدب كمـا منعـوا الحسين(ع) وأصحابه من الماء. ثم ينبّه الناس فـى البيـت الثالـث و يـذكرهم بـأنّ آل بيـت الرسول (ص) رفعوا راية الهدى وعلم الدين بينهم لكنّهم ظُلموا وقُتلوا شكراً لهذه النعمة. ثـم يواصل الإمام(ع) أبياته قائلا:

بنى اميّـةَ مـا هـذا الوقـوف علـى　　تلک المصـائب لا تُلبُـون داعينـا
تُصـفّقون علينـا كفّكـم فَرَحـاً　　وأنتم فـى فِجـاج الارض تَسـبونا
أ ليس جَدّى رسـول الله وَيحَكُـمُ　　أهدَى البريّةَ عـن سُـبل المُضـلّينا
يا وَقعةَ الطّفِ قـد أورثتِنـى حزنـاً　　واللهُ يَهتـکُ أسـتارَ المُسـيئينا

(القندوزى، ١٤١٦: ٣/ ٨٦)

الاحتجاج وعاطفة الغضب من أبرز سمات هـذه الأبيـات لأنّ الإمـام (ع) يُهـدّد بنـى أميـة وخاصة قَتلة الإمام الحسين (ع) فيها. ونرى فى أسلوب الإستفهام فـى البيـت الأول نوعـاً مـن التوبيخ وايضاً إعلان كفر بنى أمية وهذا مشهود من قوله: «لا تلبّون داعينا» والمقصـود منـه هـو النبى (ص). والرثاء الحزين مشهود حينما يشير الإمام (ع) إلى فرح الأذلّة وغربة الأعزّة فى البيت الثانى كما استفاد من عبارة «وقعة الطفّ» كرمز لبيان الكآبة والأسى.

٣.٢ هجو بنى أميّة

الهجاء فى الإصطلاح غرض من أغراض الشعر يتناول فيـه الشـاعر بالـذمّ والسـخر و التحقيـر والتشهيرعيوب خصمه المعنوية والجسدية. والدافع إلى الهجاء هـو الـبغض المشـفوع بالتهديـد. ويبدو أن العاطفة التى تحرک الهجاء أقرب إلى طبيعة العربى البدوى ولكنّ الإسلام هذّبها وارتقى بها. فاسبغ عليها معنى دينياً (طليمات، ٢٠٠٧: ٥٣٣).

فاستفاد الإمام (ع) من هذا الغرض فى مراثيه مراراً لتحقير خصـومهم ومعانـديهم. فأكّـد (ع) على نسبه و نسب بنى أمية لبيان فخامة شأنه من جهة ودناءة شأن خصومه من جهة أخرى قائلا:

يَروعهم بالسّبّ مَن لا يَروعه سِبابٌ ولا راع النّبيّين رائعُ
ودائعُ أملاكٍ وأفلاكٍ أصبحوا لِجَور يزيد ابن الدَّعی ودائعُ
فلَيتک يا جدّاهُ تنظرُ حالَنا نُسامُ ونُشرَی كالإماءِ نُبايعُ

(سپهر، ۱۳۲٤: ۲/ ۲۰٤)

ينسب الإمام (ع) نفسه إلى سلالة الأنبياء (ع) ويتّهم يزيد فی نسبه لتفجير ثورة عاطفية بين الناس من خلال تعريف نفسه لهم، ثم ينادی الرسول (ص) بلفظ «يا جدّاه» ليؤكّد علی نسبه ويشكو إليه من المصائب التی أصاب أهل بيته، كَسبّهم واسارتهم. كما استخدم لفظ «الإماء» لبيان تحقير شأنهم. فی قصيدة أُخری، يخاطب الإمام (ع)، رسول الله (ص) منادياً «يا جدّاه» مرة أخری ليذكر الناس أنّه من أولاد الرسول (ص) ويصف بنی أمية بـ «علوج أُميّة».

أُناديکَ يا جدّاه يا خيرَ مُرسَل حبيبُک مَقتولٌ ونَسلُک ضائعُ
أُقادُ ذليلاً فی دِمشقَ مُكبّلاً وما لیَ مِن بَين الخلائق شافعُ
لقد حَكموا فينا علوج اميّة فقد ظَهروا فينا عظيمَ البَدائعُ

(المصدر نفسه: ۲/ ۲۵)

فيشير الإمام السجاد (ع) فی هذه الأبيات إلى ثلاثة مصائب كبری بلسان الرثاء الحزين:

۱. شهادة الإمام الحسين (ع).
۲. إسارة أهل بيت النبوة وغربتهم بين الناس.
۳. رواج البِدَع بيد الحكّام الفاسقين.

ثمّ خاطب الإمام (ع) يزيد فی المجلس قائلاً:

لا تَطمعوا أن تُهينونا فنُكرمَكم وأن نَكفَّ الأذی عنكم وتُؤذونا
واللهُ يَعلم أنّا لا نحبُّكمُ ولا نَلومُكمُ أن لا تُحبّونا

(ابن شهر آشوب، ۱٤۳۲: ٤/ ۱۷۳)

كان الإمام السجاد (ع) ينطق عن الله تعالى ويستشهد فی بعض أشعاره بمنطق *القرآن الكريم* وهو منطق الإعجاز لذلک كان بسهولة يتغلب على الجبابرة والطغاة ويغيضهم ويذلّهم فی عقر دارهم؛ فمن يقرأ هذه الأبيات بدقة يری أنّها تتضمّن بعض المضامين القرآنية التی قداستفاد منها الإمام (ع) فی هجو يزيد، إذ يؤكّد فی البيت الأول أنّ أهل البيت لا يُخذَلون كما قال الله تعالى فی محكم كتابه: «ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين» (المنافقون: ۸). ثم يشير فی البيت الثانی إلى أنّ أهل البيت وبنی أمية هما فريقان لن يتّحدا معاً أبداً ولن يحبّ احدهما الآخر كما جاء فی الآية

الأخيرة من سورة المجادلة: «لا تَجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون مَن حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم».

٤.٢ تسجيل واقعة كربلاء و مصائب آل الله

يرثی الإمام(ع) أباه فی بعض أبياته ويصوّر ما حدث فی يوم عاشوراء مستغاثاً جدّه:

إلی جدّنا نشكو عُداةً تَحكّموا ونالوا بنا و الله كلَّ مُناءِ
ويا جدّنا أردَوا أبی متذلّلاً قتيلاً وفی الأحشاء حَرّ ظَماءِ
وقد رفعوا رأساً فوق ذابل كما البدرُ يبدو فی علوّ سماءِ

(الإسفراينی، ١٢٩٦: ٦٨)

ذكر الإمام (ع) فی هذه الأبيات، شدّة عطش أبيه الحسين (ع) يوم عاشوراء إذ ذُبح عطشان ثم هجم الأعداء إلی خيام النسوان بعد القتال ولم يكن لهنّ أیّ ناصر. ثم فی البيت الثالث شبّه رأس أبيه (ع) بالبدر وهو القمرالمتلألئ فی الليل، كأنّه أراد بهذا التشبيه أن يبيّن ظلمة جور الحكام وضلال الناس بسبب الغفلة والتخاذل.

بذل الإمام (ع) أقصی جهده فی إحياء واقعة الطفّ طيلة حياته كما روی أحد غلمانه، بعد سنوات مديدة من حادثة كربلاء «أنّه وضع جبهته فی الصحراء علی صخرة صمّاء فناحَ كثيراً و بكی غزيراً وقال فی السجدة ألف مرّة» لا إله إلّا الله حقاً حقاً لا إله إلّا الله تعبّداً ورقّاً لا إله إلّا الله ايماناً و تصديقاً، «فلمّا رفع رأسه قلتُ له يا سيدی أوليس لهَمّک انتهاء ولا لبكائک انقضاء فقال لی ويحک إنّ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم كان نبياً وابن نبیّ وله اثناعشر ابناً فغيّبَ الله واحداً منهم فشابَ رأسه من الحزن وذهب بصره من البكاء وابنه حیّ فی دار الدنيا وأنا رأيتُ أبی وأخی و سبعةعشر من أهل بيتی صَرعَی مقتولين فكيف ينقضی حزنی ويقلّ بكائی؟» (ابن طاووس، ١٣٢١: ١٢٢).

فأنشد الإمام (ع) الأبيات التالية:

إنَّ الزَّمانَ الّذی قَد كانَ يضحِكُنا بِقُربِهِمْ صارَ بِالتَّفريقِ يبكِينا
حالَتْ لِفَقْدِهِمْ أيامُنا فَغَدَت سُوداً وكانَت بِهِم بِيضاً لَيالِينا
فَهَل تَرَی الدَّارَ بَعدَ البُعدِ آنِسَةً أم هَل يعُودُ كَما قَد كانَ نادِينا
فَوالّذی حَجَّتِ الرُّكْبانُ كَعْبَتَهُ ومَن إليهِ مَطايا الكُلِّ ساعُونا
لَقَد جَرَی حُبُّكُمْ مَجْرَی دَمی فَدَمی مِنَ الفِراقِ جَرَی سُؤْلاً لِبارِينا

(المصدر نفسه)

بدأ الإمام (ع) قصیدته بالمقدمة الطللیة کالشعراء العرب القدامی الذین یبحثون عن أحبّتهم فی الخربة ویتحسّرون علی فراقها. قد أحیی الإمام (ع) هذه الحادثة بعد زمن طویل بألفاظ رقیقة ذات عاطفة حزینة صدرت عن قلب دام فی فراق الأب وأسرته کأنّها غضّة له. وجزالة کلام العرب وأنواع الصنائع الأدبیة الأصیلة مشهودة فی الأبیات کالطباق فی کلمات «یُضحک» و «یُبکی» أو «سوداً» و «بیضاً» و «أیام» و «لیالی»، والجناس فی کلمات «بَعد» و «بُعد» أو فی «جَری» و «مَجری» فی البیت الأخیر کما استخدم الإمام (ع) المقابلة فی البیت الثانی بواسطة هذه الطباقات.

ثم یرثی الإمام أباه قائلاً:

هو الزمان فلا تَفنی عجائبُه　　عن الکِرام ولا تَهدی مصائبُه
فلیتَ شِعری إلی کَم ذا یُحاربُنا　　صُروفُه وإلی کَم ذا نُحاربُه
تُسیّرونا علی الاقتاب عاریة　　وسائقُ العِیس یَحمی عنه غاربُه

(المجلسی، ۱٤۰۳: ٤٥/ ۱۲۷)

تتضمّن هذه المرثیة، الشکوی من الزمن وبیان مصائب الدهر التی لا تزال تُصیب الکرام بمقارنة بین حال آل محمد (ص) وبنی امیّة. استفاد الإمام (ع) عبارة «علی الأقتاب عاریة» مراراً وهذا یعنی أنّ هذا وَهن عظیم لآل الله، کما یصوّر حمل السبایا فی ذاک الزمن.

و له أیضاً:

وقد حَملونا فوق ظَهر جِمالهم　　بغَیر وِطاءٍ جدَّنا و غِطاءِ
لَطافوا بنا شرقَ البلاد وغربَها　　جمیعُهم یَهجوننا بهِجاءِ
وجاؤوا بنا ذُلاً دمشقَ یزیدَهم　　وقد أوقَفونا عنده بسَواءِ
وقال لقد نِلتُ المُنی کلَّ مَقصدٍ　　بقَتل أخیکم قد بلغتُ هَنائی

(الإسفراینی، ۱۲۹٦: ٦۸)

تتفجّر العاطفة فی هذه الأبیات حسرة وألماً وحزناً لإسارة آل بیت الرسول (ص). وقد زاد الإمام (ع) بتصویره الجِمال العاریات فی وقع الأبیات وتأثیرها فی النفوس کما أشار إلی عداوة بنی أمیة لبنی هاشم.

ثمّ یصوّر محنته فی الإسارة قائلاً:

أُقادُ ذلیلاً فی دمشقَ کأنّنی　　مِن الزّنج عبدٌ غاب عنه نصیرُه
وجدّی رسول الله فی کلّ مشهد　　و شیخی أمیرالمومنینَ وزیرُه

فیا لیـت لـم أنظـر دمشـقاً ولَـم یَرانـی یزیـدُ فـی الـبلاد أسـیرُه

(بحرانی، ١٢٩١: ٤/ ١٠٨)

أکّد الإمام (ع) علی أنّ هذه المصیبة کانت عظیمةً لأنّ ابن خیر المرسلین وسید الوصیین أُسِر کعبد زنجیّ بِیَد أرذل الأشخاص. فالتأکید هنا علی ثلاثة جوانب و هی: من أصابتهم هذه المصیبة أولاً وعلی من سبّبوها ثانیاً وعلی نفس الداهیة ثالثاً، کما قیل إنّه لمّا سُئل الامام (ع) عـن أشـدّ المواقف، قال: «الشام الشام الشام» (شریف کاشانی، ١٣٩٠: ٤١٢).

أُناجیک یا جدّاه یا خیرَ مُرسَـل حسینُک مقتولٌ ونسـلُک ضـائعُ
أُناجیک مَحزونـاً علـیلاً مُـؤجّلاً أسـیراً ومـا لـیَ حامیـاً ومـدافعُ
سُبینا کما تُسـبی الإمـاءُ ومَسّـنا مِن الضُّرّ ما لا تَحتملـه الأضـالعُ
أیا جدُّ یا جدّاهُ بعـدَک أظهـرت أُمیّـةُ فینـا مُکرهـاً والشـنائعُ

(سپهر، ١٣٢٤: ٢/ ٢٧٦)

یتّجه الإمام (ع) فی هذه الأبیات نحو جدّه رسول الله (ص) و یقصّ علیـه قصّـته المؤسـفة. فتکرار کلمة «جدّ» وسرد العبارات بأسلوب النداء یضیفان للأبیات إیقاعاً جمیلاً إذ یرسم منظـراً دقیقاً سیطر علیه الحزن وصدق العاطفة. کما أکّد علی نسبه بتکرار ضمیرالخطاب فی «أناجیک»، «حسینک» و «نسلک» لیبیّن مدی غفلة الناس وعظمة ذنبهم فی قتل أسرة الرسول (ص).

٥.٢ التذکیر بحقّ أهل البیت (ع)

إضافة إلی بیان المصائب، قدأکّد الإمام السجاد (ع) فی بعض مراثیه، علی تضییع حق الائمّة؛ وهو فی الواقع نبّه المسلمین بأنّ الخلافة لاتنبغی إلاّ للائمة الهداة (ع).

کما أنشد قائلاً:

لکم مـا تَـدّعون بغیـر حـقّ إذا مِیزَ الصِّحاحُ مِن المِـراض
عَـرفتم حقَّنـا فَجَحـدتمونا کما عُرفَ السَّوادُ من البیاض
کتـابُ الله شـاهدُنا علـیکم وقاضینا الإلـهُ فـنِعمَ قاضـی

(ابن شهر آشوب، ١٤٣٢: ٤/ ١٧٤)

أشار الإمام (ع) من خلال هذه الأبیات إلی تضییع حقّهم فی الخلافة رغم وضوحه؛ وهذا یدلّ علی شدة غفلة الحکّام عن الحق لأنّهم رأوه واضحاً جلیّاً کالشمس ولکن ما اتّبعوه! ومما أشـار

إليه الإمام (ع) هی مظلومية أهل البيت لأنّه يهدّد الحكّام الظَلمة بإحقاق حقّه يوم القيامة لأنّ هذا الأمر كان مستحيلاً فی ذاک الزمن. ومن الطريف أنه (ع) جعل القرآن شاهده فيما جری لآل الرسول (ص) للردّ علی من يتّهموهم فی دينهم بعد واقعة الطفّ.

و كرّر الإمام (ع) هذا الوعيد فی قصيدة أخری حيثما مكانة أهل البيت و مواليهم و مُعاديهم:

لَنحن علی الحوض رُوّادُه　　نَذودُ ونَسقی وُرّادَه
وما فازَ مَن فاز إلّا بنا　　وما خابَ مَن حبُّنا زادُه
ومَن سَرَّنا نالَ مِنّا السُّرور　　ومَن ساءَنا ساءَ ميلادُه
ومَن كان غاصبَنا حقَّنا　　فيومُ القيامةِ ميعادُه

(المجلسی، ١٤٠٣: ٤٦/ ٩٢)

يذكر الامام (ع) أحوالهم بعد الإسارة ويصوّر ظلم بنی امية فی حقّهم لمّا غصبوا الحكم، كما يشير إلی عدم تأسّيهم بحلال الله و حرامه بل تحريم حلال الله و تحليل حرامه و الأفجع هو إباحة حريم أهل البيت و سفک دمائهم. فطلب من رسول الله (ص) أن يأخذ حقّهم يوم القيامة وهذا يعنی أنّ الأمويين لَم يألوا جهداً فی إيذاء أهل البيت وتعذيبهم بأشدّ العقوبات:

فخُذ حقَّنا يا جدَّنا منه فی غدٍ　　وفی يوم حشر يوم فصل قَضاءِ
غدا يَستحيلُ الآنَ كلَّ مُحرّم　　يَبيحُ بأهل البيت سفکِ دِماءِ
إذا يَستبيحُ الآن آل محمّد　　ويَسقی لأهل البيت كلَّ رداءِ
سُيوفُهم قد جرّدَت رقابنا　　فيا وَيلَهم مِن حَرّ نار لَظاءِ

(الإسفراينی، ١٢٩٦: ٦٨)

٣. النتيجة

أساساً علی ما تقدّم فی هذا البحث، تبيّن لنا أنّ رثاء الحسين (ع) فی أشعار الإمام السجاد (ع) امتاز بميزات خاصة هی:

١. يرثی الإمام (ع) أبيه المظلوم ويرسم جوانب مأساته مع قوة البيان وصدق العاطفة بسبب قرابته أولاً وحضوره فی المعركة ثانياً.

٢. صوّر الإمام (ع) جوانب المأساة تصويراً دقيقاً حيث استفاد من الفنون الأدبية كالتشبيه والجناس والطباق و ... ومن بعض الأساليب كالنداء والاستغاثة والتكرار.

٣. يمكن اعتبار هذا اللون من الرثاء تمثيلاً للحياة الاجتماعية بما تضمّن من معان تتجذّر من

الوقائع السياسية والاجتماعية آنذاک کخوض الناس فی الغفلة والتخاذل بسبب میلهم إلی الدنیا و ظواهرها.

٤. کان رثاء الإمام مصبوغاً بصبغة هجائية یعکس جور الحکام الأمویین فی غصب الخلافة و سفک دماء آل الرسول (ص).

٥. لا یکتفی الإمام (ع) بذکر مصائب اهل البیت (ع) بل بذل أقصی جهده من خلال مراثیه لبعث روح الحمیّة والغیرة بین الناس کی یثوروا علی جور الحکام.

٦. معظم مراثی الإمام السجاد (ع) فی أبیه المظلوم نُدَبٌ لا تخلو من تأبین بشکل عام وقد یأتی فیها العزاء.

الهوامش

١. هذا الشعر ینسب إلی الإمام السجاد (ع) و إلی ابی الأسود الدؤلی ایضا.

٢. کما جاء فی الآیة ٢٣ من سورة الشوری «قل لا أسألکم علیه أجرا إلا المودة فی القربی».

٣. الفسطاط هی المدینة التی بناها عمرو بن العاص عقب فتح مصر عام ٦٤١ م وهی تقع بمقربة من حصن بابلیون تقع علی ساحل النیل فی طرفه الشمالی الشرقی، قبل القاهرة بحوالی میلین، وکان النیل عندها ینقسم إلی قسمین. وموضعها کان فضاءً ومزارعَ بین النیل والجبل الشرقی لیس فیه من البناء والعمارة سوی حصن بابلیون الذی یطل علی النیل من بابه الغربی الذی یعرف بباب الحدید.

المصادر

القرآن الکریم.

ابن شهر آشوب، محمد بن علی (١٤٣٢ه.ق). *مناقب آل أبی طالب*، ج ٣ و ٤، قم: مکتبة الحیدریة.

ابن طاووس، علی بن موسی (١٣٢١ه.ق). *اللهوف فی قتلی الطفوف*، لا.ب: مکتبة المجلس بخط محمد علی بن شمس الکتاب.

القندوزی الحنفی، سلیمان بن إبراهیم (١٤١٦ه.ق). *ینابیع المودة لذوی القربی*، ج ٣، قم: منظمة الأوقاف والشئون الخیریة؛ دار الأسوة للطباعة والنشر.

الإسفراینی، أبواسحاق (١٣٠٣ه.ق). *نور العین فی مشهد الحسین(ع)*، مصر: المطبعة العامریة العثمانیة.

البحرانی، هاشم بن سلیمان (١٢٩١ه.ق). *مدینة المعاجز*، ج ٤، طهران: دارالطباعة علیقلی خان قاجار.

الدربندی، فاضل (١٤٢٠ه.ق). *إکسیر العبادات فی أسرار الشهادات*، قم: ذوی القربی.

سپهر، محمدتقی بن محمدعلی (١٣٢٤ه.ق). *ناسخ التواریخ فی أحوالات سید الساجدین إمام السجاد علیه السلام*، ج ١ و ٢، تفلیس: زین العابدین تقیوف.

شریف کاشانی، حبیب الله بن علی مدد (۱۳۸۵ه.ش). *تذکرة الشهداء*، قم: مدین.
الطبرسی، احمد بن علی (١٤٢٢ه.ق). *الاحتجاج*، قم: منظمة الأوقاف والشئون الخیریة؛ دار الأسوة للطباعة والنشر.
طلیمات، غازی (۲۰۰۷). *الشعر فی عصر النبوة و الخلافة الراشدة*، دمشق: دارالفکر.
المجلسی، محمدباقر (١٤٢١ه.ق). *بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الائمة الأطهار*، ج ٤٥ و ٤٦، قم: مؤسسه دار الفقه للطباعة والنشر.
الموسوی الزنجانی، سید إبراهیم (١٤٠٢ه.ق). *وسیلة الدارین فی أنصار الحسین(ع)*، بیروت: مؤسسة الأعلمی.
النوری، حسین بن محمدتقی (١٤٠٧ه.ق). *مستدرک الوسائل*، ج ۱۰، قم: مؤسسة آل‌البیت (علیهم‌السلام) لإحیاء التراث.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی